

القيم الوطنية في الشعر الثوري الجزائري

أ / حطري سميرة.

أستاذة مساعدة مكلفة بالدروس

جامعة الجيلالي اليابس سيدي بلعباس

الثورة والثوار صرخة الحق في وجه الباطل الأم والأبناء. حب أبدي صادق حبل الوريد الذي جمع بين الجزائر وشعرائها هو القضية الكبرى، قضية (الحرية والكرامة).

عاشوا لها، تغنوا بها، متممين بحبها وحب جمالها بعفتها وقديسياتها.

الجزائر مريم العذراء كانت ولا تزال حبيبة كل الجزائريين رجالا، نساء، وأطفالا حبيبة عنتر قنبلة. حبيبة قيس لبيلي. وكم هي الأسماء متعددة ومتنوعة فلكل شاعر حبيبته أما حبيبة شعراء الثورة الجزائرية فكانت واحدة "جزائر" جزائرنا البيضاء، الأم الغالية والزوجة الحليمة والأخت الحنونة والبنت المتدلة.

شعراء كثيرون تحدثوا عن الثورة الجزائرية كمحمد العيد الخليفة، بلقاسم خمار صالح خريف، الزاهري، خبشاش، أحمد سحنون، البشير الإبراهيمي، الأخضر السائحي... وكم من أسماء وأسماء لشعراء عاشوا للقضية الجزائرية للثورة والحرية عبر أشعارهم وأناشيدهم الوطنية.

لو حاولنا الحديث عن أي شاعر من هؤلاء لقلنا عنه شاعر الجزائر بل صوت الجزائر. وكل هاته الأصوات الملتزمة المؤمنة (بالوطن الأم) كانت تجول أرواحها عبر كل التراب الوطني من شمال وجنوب وشرق وغرب لتلتحم عبر سنين الألم والتحدي من أجل الحرية من أجل الحياة.

مفدي زكريا: الشيخ زكريا بن سليمان بن يحيى بن الشيخ سليمان بن الحاج عيسى¹

هو (صوت الأمة ابن الجزائر بالصوت الثائر).

هو الشاعر الإنسان الذي لا يمكن أن نعزل نصه عن روحه ولا روحه عن نصه.

شعره ينبض بحب الجزائر الوطن مؤمنا بأنها عربية مسلمة حرة وبأن أجدادنا أحرارا وأبائنا ثوارا وشبابنا أبرارا.

مؤمنا بأن الجزائر جزائرية حرة عربية مسلمة وبأن الجزائر وحدة من الوطن العربي ككل.

لدى إذا رجع القارئ لنصوص مفدي زكريا الشعرية والثورية والأناشيد الوطنية ومقاتلاته سيجد بها أعظم وأنبث القيم الروحية والوطنية، وقد اخترنا اخترنا "اللهب المقدس" من بين المصادر الأخرى، لأنه ديوان الثورة الجزائرية دون أن ننسى إلهادة الجزائر، تحت ظلال الزيتون روح الأطللس وغيرها.

لذا حاولنا العودة إلى شعره الثوري، ما قبل الإستقلال الوطني وإبراز أهم القيم الروحية الموجودة في بعض قصائده من ديوانه "اللهب المقدس"

علما بان شعره الثوري موجود بدواوين و مجلات و جرائد مختلفة .

1- الذبيح الصاعد *

قام يختال كالسيح وثيدا ... يتهادى نشوان يتلو النشيدا
باسم النثر، كالملائك، أو كالمط ... فل، يستقبل الصباح الجليدا
شامخا أنفه، جلالا وتيها ... رافعا رأسه، يناجي الخلودا
رافلا في خلاخل، زغربت تم... لأ من لحنها الفضاء البعيدا
حالما كالكلبيم، كلمه المج ... دفشت الحبال يبغي الصعودا
وتسامي، كالروح، في ليلة القد ... رسلا، يشع في الكون عيدا
وامتطى منبح البطولة مع ... راجا، ووافى السماء يرجو المزيد
وتعالى، مثل المؤمن، يتلو ... كلمات الهدى، ويدعو الرقودا
صرخة، ترجف العوالم منها ... ونداء مضى يهز الوجودا:
"اشفقوني، فلست أخشى حبالا ... واصلبوني، فلست أخشى حديدا"
"وامتثل سافرا محياك جلا ... دي، ولا تلتئم، فلست حقوقا"
"وأقضي يا موت ما أنت قاض ... أنا راض، إن عاش شعبي سعيدا"
"أنا إن مته فالجزائر تحيا ... حره، مستقلة، لن ثبيدا"(2)

كم هي رائعة وعظيمة ومتنوعة، تلك القيم الموجودة بقصيدته الأولى الذبيح الصاعد، بديوانه "اللهب المقدس" نابعة من روح شاعرنا "مفدي زكريا". إن كانت القصيدة تتحدث عن الشهيد "أحمد زيانا" فالشاعر لا يتوقف عند استشهاد، وإنما يمثل به المسيح الذي صعدت روحه إلى ربها راضية مطمئنة، كذلك "زيانا" صعدت روحه إلى ربها عز وجل، بعزتها وأنفتها وصمودها، حرة طليقة. لم يخش زيانا التعذيب وهو سجين، ولا الموت وهو قائم إليها آناء الليل، وإن قتله المستعمر، فقد أمات جثته أما الروح فرحلت عبر السماوات والأفلاك لتقص ثورتنا المجيدة ثورة كل الجزائريين. قداسية وسموروش الشهيد، جعلها الشاعر من قداسة روح المسيح وإبراهيم ومحمد (صلى الله عليه وسلم) وكل الأنبياء، وحتى الملائكة والأطفال الأبرياء، لأن الشهيد عند ربه حيا يرزق سعيدا راضيا، ومكانة عظيمة عند الإله.

أهم القيم الروحية الموجودة بالجزء الأول من القصيدة :

(قداسة وسموروش الشهيد - الطمأنينة - العزة والشموخ - الخلود - البطولة -
الصمود - القوة - الإيمان بالله تعالى وبحرية الوطن الأم - التحدي).

العبارات التي تدل على ذلك :

قام يخال كالسيح، يتلو النشيد، باسم الثغر، كالملائك، يستقبل الصباح الجديد، شامخا
أنفه، يناجي الخلود، شد الخبال يبغي الصعود، تسامى كالروح في ليلة القدر، امتطى مذبح البطولة، و
هنا يقول الفارس بمتطي جواده، فزيانا كان فارسا وكان بطلا، وتعالى مثل المؤذن، يتلو كلمات الهدى،
اشنقوني فلست أخشى، اصلبوني لست أخشى...، لست حقودا، راض إن، أنا إن مت، فالجزائر تحيا حرة ..

ثم يقول :

يا "زيانا" أبلغ رفاقك عنا ... في السماوات، قد حفظنا العهودا
واروعن ثورة الجزائر للألف... لآك والكائنات ذكرا مجيدا
ثورة، لم تكن لبغي، وظلم ... في بلاد، ثارت تفك القيودا
ثورة، تملأ العوالم رعبا ... وجهاد، ينزرو الطفـاة حصيدا
كم أتينا من الخوارق فيها ... وبهرنا، بالمعجزات الوجودا
واندفعنا، مثل الكواسر نترتا... د المنايا، وثلتقي البارودا
من جبال رهيبة، شامخات ... قد رفعا على نراها البنودا
وشعاب، ممنعات براها ... مبدع الكون للوغى أخذودا
وجيوش، مضت، يد الله تز... جيها، وتحمي لواءها المعقودا
من كهول، يقودها الموت للن... صر، فتفتك نصرها الموعودا
وشباب، مثل النسور، ترتى ... لا ييالي بروحه، أن يجودا
وشيوخ، محنكين، كرام ... ملئت حكمة ورأيا سديدا
وصبايا، مخدرات تبارى ... كاللبوءات، تستفز الجنودا
شاركت في الجهاد آدم حوا... ه، ومدت معاصما وزنودا(3)

هنا يطلب الشاعر من روح الشهيد "زيانا" ورفيقه في السجن، أن يروي عبر السماوات
والأفلاك ثورة الجزائر الخالدة، ويبلغ رفاقه الشهداء عن ثورة تجمعت فيها كل القوات الإلهية
والبشرية والطبيعية والحيوانية .

رسالة الشهيد تتحدث عن ثورة مقدسة، ثورة الأبطال الشجعان، ثورة الكل والكل واحد،
ثورة وحدتها نفس الصرخة . فتوخذ الشعب من حيوش وكهول وشباب ونساء وصبايا وحتى
الشيوخ والعجائز تقودهم قوة الهية عظمى، قوة الله عز وجل، وتنظم اليهم قوة الطبيعة بجبالها و
غاباتها ووديانها .

القيم الروحية الموجودة بالجزء الثاني من القصيدة :

(السيادة، الشجاعة، المعجزات، البطولة والوحدة)

العبارات التي تدل على ذلك :

- ثارت تفك القيود - ثورة تملأ العوالم رعبا - آتينا من الخوارق
- بهرنا بالمعجزات - أندفعنا مثل الكواسر - جبال رهيبة شامخات
- شعاب ممنعات - جيوش مضت يد الله تزجيها وتحمي لواءها
- شباب مثل النسور ترتمي لا يبالي بروحه - شاركت في الجهاد آدم حواه ...

ثم يواصل قائلا :

ليس في الأرض سادة وعبيد ... كيف نرضى بأن نعيش عبيدا ١٩
أمن العدل ، صاحب الدار يشقى ... وذخيل بها ، يعيش سعيدا ١٩
أمن العدل ، صاحب الدار يعرى ... وغريب يحتل قصرا مشيدا ١٩
ويجوع ابنها ، فيعدم قوتا ... وينال الذخيل عيشا رغيدا ٩٩
ويبيع المستعمرون حماها ... ويظل ابنها طريدا شريدا ٩٩
يا ضلال المستضعفين ، اذا هم ... ألفوا الذل ، واستطابوا العقودا ١١١ (4)
وهنا يتساءل الشاعر متعجبا ، رافضا لظلم الاستعمار فكيف بالذخيل يعيش سيذا وكأنه
صاحب الدار ، أما صاحب البيت فيعيش مستغلا ، منبوذ الحقوق ، غريبا ، مهانا .

القيم الروحية الموجودة بالجزء الثالث من القصيدة :

وهنا نجد (الرفض القاطع للظلم وجبروت الاستعمار والتعجب من احتلال الموازين).

العبارات التي تدل على ذلك :

- ليس في الأرض سادة وعبيد - أمن العدل - يظل ابنها طريدا شريدا
- مفدي زكريا يرفض وبقوة أن يعيش الجزائري مهانا في بلاده جائعا ، عاريا ، غريبا ، شريدا
- ، والمستعمر الفرنسي الذخيل سعيدا يتنعم بخيراتاه .
- ثم يعود الشاعر للفئة الأخرى من الجزائريين فئة الجبناء ، فيعاتبهم ، بل يحتقرهم
- لضعفهم ، فلا مكانة للذليل البائس الخائف الجبان .
- وبعدها يقول :

يا فرنسا ، كفى خداعا فانا ... يا فرنسا ، لقد مللنا الوعودا
صرخ الشعب منذرا ، فتصا...ممت ، وأبديت جفوة وصدودا
سكت الناطقون ، وانطلق الرش...اش ، يلقي اليك قولا مفيدا
نحن ثرنا ، فلات حين رجوع ... أو تنال استقلالنا المنشودا (5)

العدد السادس

ولا يكتفي بهذا وإنما بفضل خمار الصمت إن كان شعره لا يقوى في وجه العدو من أجل الثورة من أجل الجزائر والجزائريين، فهو يتألم لآلامها ويتألم لأنه يخشى ألا يصل شعره صوت الرشاش والمدافع.

وهنا يقول:

أين مني قصيدة تتلظى من قصيد يفيض حبرا أيبا
أين من أغنية لليالي من هتاف غطى الربوع دوبا
أين سني وفي الجزائر آهات، تهز القلوب هذا قويا
يا هزالي، إذا رفعت من الثوار صوتي ولم يكن مدفعيا⁽⁸⁾

أهم القيم الوطنية:

الألم والحسرة، حيث يناشد خمار القلوب وكيف لا وهو يتحسر، يتألم، وهو يرى الجزائر في كل ربوعها العيون تبكي والقلوب تحترق وهو يخشى أن صدق كلماته وقوتها لا يهز الكون.

3- صالح باوية:

أما صالح باوية فيحدثنا من الروح إلى الروح، حبه القوي لأرض الجزائر الحرة الأبية تجعله يحدث ربة الشعر طالبا إياها أن تقص عليه معجزات الثورة المسلحة على أرض الوغى أرض رفضت الذل والهوان، رفضت القيود مهما التقتيل والتعذيب، إلا أن دماء الثوريين، دماء كل الجزائريين طهرتها من كل خبث وخبث.

وهنا يقول:

في الذرى في الحقل، في كوخ الصديقة
في رفاتي، حضر الفجر طريقه
في دروبي، في المغارات العتيقة
أنشديني، أنشديني يا صديقة
قصة مشحونة، بالموت، بالنصر المعفى في الينابيع العميقة
قصة بكرا عنودا، لم يعد يوما بها سحر الأساطير العتيقة
قصة (الأوراس) جرحى، جرحنا الخلاق، يا صحتي وجود وحقيقة
قصة الساعد، والزند المدمى، والهدايا والمناديل الأنيقة
قصة العملاق يمينه دماء، ويسراه زغاليل رقيقة⁽⁹⁾

4- أبو القاسم سعد الله:

أما أبو القاسم سعد الله فالثورة عنده لم تفجر دماء وإنما جداول نور وأنهار حب⁽¹⁰⁾.

أضاءت بلادي طريق الخلاص لمن يسأل الليل أن ينجلي
وحطمت السد، فانساح منه على الأطلس الخالد المخملي
جداول نور، وأنهار حـسب تزف الصباح إلى المقبل (11)
أهم القيم الوطنية تتمثل في:

الثورة الجزائرية طريق للنور والاستقلال، ودماء شهدائها جداول نور تضيء المستقبل
والصباح المقبل كل هذا يبهج الشاعر الإنسان أبو القاسم سعد الله.

الإحالات:

- 1- عبد الله ركيبي، نفوس ثائرة، القاهرة، دار المصرية للطباعة والنشر والتوزيع 1962، ص 5-6 من مقدمة د/ شكري عياد.
- 2- مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، الطبعة الثانية المؤسسة الوطنية للكتاب، 3 شارع زيروت يوسف، الجزائر 1991، ص 9-10
- 3- مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص 11
- 4- مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص 16
- 5- مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص 17
- 6- مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص 19
- 7- أبو القاسم خمار: أوراق، الشركة الوطنية الجزائرية للنشر والتوزيع، 1967، ص 14
- 8- أبو القاسم خمار: أوراق، ص 8
- 9- مجلة الفكر التونسية، عدد 5، فبراير 1958.
- 10- صالح خريفي الشعر الجزائري الحديث المؤسسة الوطنية للكتاب 1984، ص 245.
- 11- أبو القاسم سعد الله، النصر للجزائر: دار الهمنا للطباعة، مصر، 1956، ص 19.